المنهج الشرعي في التعامل مع القبور:

المتأمل في نصوص الشريعة وكلياتها يجد أن الشريعة اهتمت بالقبور اهتماما كبيرا، وأحاطتها بعدد من الأحكام والتشريعات، وجعلت كثيرا من الأعمال والأحكام المتعلقة بها من الأمور التوقيفية التي لا يجوز فيها الاجتهاد.

وقد أطلق بعض الدارسين أن أحكام القبور توقيفية[٢]، وهذا الإطلاق غير صحيح؛ فليست كل الأحكام المتعلقة بالقبور متوقفة علىٰ ورود النص، وإنما كثير منها، وكثير منها هو من قبيل المباح الذي يعتمد الناس فيه علىٰ المصلحة وما يرونه أصلح لهم.

واهتمام الشريعة بالقبور يتجلىٰ من ثلاث جهات:

الجهة الأولىٰ: إيجاب القبر في الدفن، وبيان صفته، وذلك بأمور، ومنها:

الأمر الأول: إيجاب دفن الميت وقبره، يقول ابن المنذر: «لم يختلف

(١) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي (٨٣).

(٢) انظر: قواعد في توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وليد السعيدان (٢٠٢).

من أحفظ عنهم من أهل العلم: أن دفن الموتىٰ واجب»[١].

الأمر الثاني: الأمر بتعميق القبر وتوسيعه، يقول ﷺ: «احفروا وأوسعوا، واجعلوا الرجل والثلاثة في القبر»[٢].

الأمر الثالث: الأمر بجعل القبر لحدا، أي: مائلا جهة القبلة، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال في مرض موته: «الحدوا لي لحدا، وانصبوا علي اللبِن نصبا، كما صُنع برسول الله ﷺ»[٣].

الأمر الرابع: تشريع رفع القبر مقدار شبر، ولأجل ذلك كان قبر النبي ﷺ مرفوعا عن الأرض قدر شبر[٤].

الأمر الخامس: تسنيم القبر أو تسطيحه، أي: جعل ظاهر القبر مسنما أو مسطحا، وهذه المسألة اختلف العلماء فيها علىٰ قولين، منهم من قال: الأفضل أن يكون القبر مسنما، ومنهم من قال: الأفضل أن يكون القبر مسطحا[٥]، والأقرب القول الأول؛ لحديث سفيان التمار، أنه قال: رأيت قبر النبي ﷺ مسنما»[٦].

الأمر السادس: إباحة تعليم القبر، أي: وضع علامة علىٰ القبر حتىٰ يعرفه من يرغب في زيارته، ومما يدل علىٰ ذلك أن النبي ﷺ وضع علىٰ قبر عثمان بن مظعون حجارة، وقال: «أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي»[٧].

---

(١) الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٥/ ٤٥٠).
(٢) رواه أبو داود (٣٢١٥)، وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (٩٦٦).
(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٢١٦٠).
(٥) انظر: المغني، ابن قدامة (٣/ ٤٣٧).
(٦) رواه البخاري (١٣٨٩).
(٧) رواه أبو داود (٣٢٠٦)، وصححه الألباني.

وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: «كانوا يكرهون أن يُعلم الرجل قبره»[١]، والصحيح إباحته لما صح من الدليل.

الجهة الثانية: حفظ حرمة القبور، وذلك بعدد من الأمور، منها:

الأمر الأول: النهي عن قضاء الحاجة في المقابر، ويدل علىٰ هذا الأمر: قوله ﷺ: « . . . وما أبالي أوسط القبور قضيت حاجتي أو وسط السوق»[٢].

الأمر الثاني: النهي عن المشي بين القبور بالنعل، ويدل علىٰ هذا الأمر: قوله ﷺ حين رأىٰ رجلا يمشي في نعلين بين القبور، قال: يا صاحب السِّبْتِيَّتَيْنِ، ألقهما»[٣].

الأمر الثالث: النهي عن الجلوس علىٰ القبور، لقوله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم علىٰ جمرة فتحرق ثيابه، فتخلص إلىٰ جلده خير له من أن يجلس علىٰ قبر مسلم»[٤].

وقد خالف الإمام مالك ومن تبعه وذهبوا إلىٰ إباحة الجلوس علىٰ القبور، وحملوا الحديث علىٰ أن المراد به الجلوس علىٰ القبور لقضاء الحاجة.

والصحيح قول الجمهور، ومما يدل علىٰ ذلك أنه جاء في بعض ألفاظ الحديث النهي عن الاتكاء علىٰ القبر، والاتكاء لا يكون مع قضاء الحاجة[٥].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١١٧٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه (١٥٦٧)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد (٢٠٧٨٤) وغيره، وصححه شاكر، والألباني وغيرهما.

(٤) رواه مسلم (٢٢٠٨).

(٥) انظر: عمارة القبور، المعلمي -ضمن آثاره- (٥/١١٦).

الأمر الرابع: النهي عن كسر عظم الميت، لقوله ﷺ: «إن كسر عظم المؤمن ميتا مثل كسره حيا»[١]، وهذا الحديث عام يشمل ما قبل الدفن وما بعده، ومن هنا أُدخل في بحثنا.

الأمر الخامس: تحريم نبش القبور إلا إذ وجدت مصلحة، وهذا الأمر ليس فيه دليل صريح من نصوص الشريعة، وإنما قرره العلماء قياسا علىٰ المعاني السابقة.

الأمر السادس: تشريع زيارة القبور والسلام علىٰ أهل القبور، لحديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ إذا هي زارت القبور ما تقول؟ فقال: «قولي: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[٢].

وقد نقل عدد من العلماء الإجماع علىٰ مشروعية زيارة القبور[٣]، والصحيح أن الإجماع لم ينضبط، فإن أئمة السلف اختلفوا في زيارة القبور من حيث الأصل إلىٰ ثلاثة أقوال[٤]:

القول الأول: أن ذلك مكروه، وهو مذهب إبراهيم النخعي، ومحمد بن سيرين، والشعبي[٥]، والظاهر من كلامهم أن مرادهم بالكراهة: التحريم والمنع الجازم.

---

(١) رواه أحمد (٢٤٣٠٨) وأبو داود (٣٢٠٧)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٢١٦).

(٣) انظر: الاعتبار في الناسخ والمنسوخ، الحازمي (٢٤٨)، وشرح صحيح مسلم، النووي (٧/ ٤٦).

(٤) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية (٢٧/ ٣٤٣)، وفتح الباري، ابن حجر (٣/ ١٤٥).

(٥) روىٰ ذلك عنهم عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (٣/ ٥٦٩).

القول الثاني: أن ذلك مباح، وهو منقول عن عدد من أئمة السلف، فقد نقل الترمذي عن ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق: أنهم لا يرون في زيارة القبور بأسا[١].

القول الثالث: أن ذلك مستحب، وهو قول جمهور أئمة السلف، وهو القول الصحيح لقوة الأدلة الشرعية الدالة علىٰ ذلك.

وقد جمع ابن تيمية بين الأقوال، فقال: «الأقوال الثلاثة صحيحة باعتبار، فإن الزيارة إذا تضمنت أمرا محرما من شرك أو كذب أو ندب أو نياحة وقول هُجر فهي محرمة بالإجماع،كزيارة المشركين بالله والساخطين لحكم الله فإن هؤلاء زيارتهم محرمة[٢] . . .

والنوع الثاني: زيارة القبور لمجرد الحزن علىٰ الميت لقرابته أو صداقته فهذه مباحة كما يباح البكاء علىٰ الميت بلا ندب ولا نياحة، كما زار النبي قبر أمه فبكىٰ وأبكىٰ من حوله . . .

وأما النوع الثالث؛ فهو زيارتها للدعاء لها كالصلاة علىٰ الجنازة، فهذا هو المستحب الذي دلت السنة علىٰ استحبابه؛ لأن النبي فعله وكان يعلم أصحابه ما يقولون إذا زاروا القبور»[٣].

الجهة الثالثة: المنع من كل ما يؤدي إلىٰ الغلو والانحراف في التعامل معها، فحين كان كثير من الجهلة لديهم تعلق شديد بالقبور ويظنون بها أوهاما كثيرة وخرافات واسعة؛ سعت الشريعة الغراء إلىٰ إغلاق كل ما يؤدي

---

(١) انظر: سنن الترمذي (٣/ ٢٦٢).

(٢) لعل ابن تيمية يقصد بالمشركين هنا الذين نزل بهم العذاب ولا يقصد كل المشركين، فإنه ذكر أن النبي ﷺ زار قبر أمه، وقد أفتىٰ عدد من العلماء بإباحة زيادة قبور الكفار.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٧٨).

إلىٰ الانحراف في القبور أو التعلق بها، وذلك بأمور، منها: النهي عن زيارتها في أول الإسلام، وذلك سدا لذريعة الشرك، يقول النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها»[1].

ومن ذلك: النهي عن اتخاذ القبور أعيادا، يقول ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[2]، وتدخل سائر القبور بالاشتراك في علة النهي.

ومعنىٰ النهي عن اتخاذ القبور عيدا، أي: الاجتماع عند القبور كما يُجتمع في الأعياد، فلا يجوز أن يحدد اجتماع مخصوص بوقت وحال معين عند القبور، فإن ذلك من اتخاذها عيدا.

ومن ذلك: النهي عن الصلاة علىٰ القبور أو إليها، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «نهىٰ أن يُبنىٰ علىٰ القبور أو أن يقعد عليها أو أن يُصلي عليها»[3]، وعن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تجلسوا علىٰ القبور ولا تصلوا إليها**»[4].

فهذه الأحاديث وغيرها تدل علىٰ تحريم الصلاة إلىٰ القبور، أي: جعل القبر في قبلة المصلي، وهذا يدل من باب أولىٰ علىٰ تحريم الصلاة علىٰ القبر.

---

(١) رواه مسلم (٩٧٧).

(٢) رواه أحمد (٨٨٠٤)، وأبو داود (٢٠٤٢).

(٣) رواه أبو يعلىٰ في مسنده (١٠٢٠)، وصححه الألباني في تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (٢٢).

(٤) رواه مسلم (٩٧).

ومنها: النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، والنهي عن مطلق البناء علىٰ القبور، وهذا المعنىٰ أوسع من بناء المساجد، فإنه يشمل القباب والغرف وغيرها، والنهي عن الكتابة عليها، والنهي عن السفر لزيارتها بخصوصها، والنهي عن إيقاد السرج عليها، وغير ذلك من الأمور.

والعلة الجامعة بين تلك النواهي ترجع في مجملها إلىٰ التحذير من الغلو في القبور، وسد كل الطرق التي يمكن أن توصل إلىٰ ذلك، وسيأتي لجملة من تلك الأمور تفصيل مطول.

مفهوم القُبورية، وتاريخها:

القبورية مصدر صناعي مفرده: جمع قبوري، وجمعه قبوريون والمراد بالقبوري: من يغلو في القبور ويقدسها ويجعلها محلا لأفعال وعبادات محرمة في شريعة الإسلام، كمن يجعلها محلا للطواف أو الصلاة والذكر والذبح والنذر أو كمن يجعلها محلا للاستغاثة بغير الله تعالىٰ، وغير ذلك.

وقد استعمل عدد من العلماء مصطلح القبوري بهذا المعنىٰ، يقول الأمير الصنعاني: «النذر بالمال للميت ونحوه، والنحر علىٰ القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما، وفعله القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني ضرورة لغوية وعقلية وشرعية»(١).

---

(١) تطهير الاعتقاد (٦١)، وانظر أقوالا أخرىٰ: القبورية، نشأتها .. آثارها .. موقف العلماء منها، أحمد المعلم (٣٠).

واستعمل ابن تيمية مصطلح «المقابريين» في التعبير عن الغلاة في القبور، حيث يقول: «فإن هؤلاء إذا ابتهلوا من جنس ابتهال المقابريين لم تكد تسقط لهم دعوة إلا لمانع»(١).

والقبورية بهذا المعنىٰ انحراف منتشر في التاريخ الإنساني، وحضوره قوي عند أمم الشرك والجاهلية، وقد نص عدد من العلماء علىٰ أن أول ظهور للقبورية كان في قوم نوح، مع أن الأقرب أن النصوص لم تذكر أن قوم نوح غلوا في قبور الأموات، وإنما غلوا في صورهم وأشكالهم المنحوتة، وليس في الأخبار أنهم عكفوا علىٰ قبورهم أو غلوا فيها.

ومع ذلك فالغلو في القبور وجعلها محلا للشرك بالله تعالىٰ وإحداث البدع المنافية لدين الله منتشر في أمم الشرك والجهالة، فقد ثبت في النصوص أن اليهود والنصارىٰ كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، كما في قوله ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٣).

ويؤكد هذا النقل واقع كثير من المعابد اليهودية والنصرانية، فإنها مبنية علىٰ قبور أنبيائهم وصالحيهم(٤).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٠٩)، وانظر: المرجع نفسه (٢/ ٢٦٧).

(٢) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (١١٢١).

(٣) رواه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (١١٢٢).

(٤) انظر أمثلة علىٰ ذلك: دمعة علىٰ التوحيد (١١٨-١١٩)، وانظر أمثلة علىٰ القبور التي تقدسها اليهود والنصارىٰ: الآثار والمشاهد، عبد العزيز الجفير (٢٦-٥٨).

وكذلك كان للقبورية حضور في بلاد مصر القديمة، فقد ذكر بليكر في كتابه «المهرجانات الدينية»: أن المصريين القدماء لا يرون فرقا كبيرا بين الإله والإنسان، ويعتقدون أن الإنسان إذا مات يحصل علىٰ شيء كبير من القوة، وأكد علىٰ أنه لا يرىٰ فرقا بين الاعتقاد الشعبي المعاصر في الأولياء وما لهم من القدرة والتصرف في الكون، وبين ما كان يعتقده المصريون القدماء في أمواتهم[١].

وأكد عدد من الدارسين أن مظاهر التقديس والغلو لقبور الصالحين في مصر في العصور المتأخرة تتشابه بشكل كبير جدا بمظاهر الغلو والتقديس للقبور عند المصريين في القديم، وذكروا أن تاريخ مصر الوثني يعود من جديد إلىٰ الواقع[٢].

وذكر الرازي أن بعض اليونان كانوا يجعلون القبور محلا للتبرك وتحصيل الخير، حيث يقول: «سمعت أن أصحاب «أرسطاطاليس» كلما أشكل عليهم بحث موضوع، ذهبوا إلىٰ قبره، وبحثوا في تلك المسألة، فكانت المسألة تنفك، والإشكال يزول»[٣].

والفلاسفة لديهم أصول توجب الغلو في القبور، فهم يعتقدون أن الأرواح تفيض علىٰ الأحياء بأمور نافعة لهم، وفي بيان أصولهم يقول ابن تيمية: «بعض الناس الذين دخلوا في دين الصابئين والمشركين؛ ظنوا شفاعة الرسول لأمته لا يحتاج إلىٰ دعاء منه، بل الرحمة التي تفيض علىٰ الرسول تفيض علىٰ المستشفع؛ من غير شعور من الرسول، ولا دعاء منه،

---

(١) انظر: موالد مصر المحروسة، عرفة عبده علي (٢٣)، نقلا عن: دمعة علىٰ التوحيد (١١٤).

(٢) انظر: دمعة علىٰ التوحيد (١١٤-١١٥، ١١٧).

(٣) المطالب العالية (٧/ ٢٢٨).

ومثلوا ذلك بانعكاس شعاع الشمس إذا وقع علىٰ جسم صقيل ثم انعكس علىٰ غيره، فإن الشمس إذا وقعت علىٰ الماء أو مرآة؛ وانعكس شعاعها علىٰ حائط أو غيره حصل النور في الموضع الثاني بواسطة الشعاع المنعكس علىٰ المرآة، قالوا: فهكذا الرحمة تفيض علىٰ النفوس الفاضلة كنفوس الأنبياء والصالحين، ثم تفيض بتوسطهم علىٰ نفوس المتعلقين بهم، وكما أن انعكاس الشعاع يحتاج إلىٰ المحاذاة فكذلك الفيض لا بد فيه من توجه الإنسان إلىٰ النفوس الفاضلة وجعل هؤلاء الفائدة في زيارة قبورهم من هذا الوجه، وقالوا: إن الأرواح المفارقة تجتمع هي والأرواح الزائرة فيقوىٰ تأثيرها»[١].

وكانت القبورية منتشرة في بلاد الهند وما حولها[٢]، وكذلك في بلاد العرب أيام الجاهلية، حتىٰ جاء الإسلام وأعلن الحرب علىٰ القبورية، ونهىٰ عن زيارة القبور في أول الإسلام، وأمر بتحطيم كل قبر مشرف ونهىٰ عن جعل القبور أعيادا ونهي عن إسراجها، وغير ذلك من الأمور التي تقطع الطريق علىٰ الغلو في القبور وبقاء القبورية أو استمرارها.

نشأة القبورية في تاريخ الإسلام:

بقي الحال في تاريخ الإسلام علىٰ اختفاء الغلو في القبور والبناء عليها والتعلق بها مدة من الزمن، فلم يكن يعرف في أول تاريخ الإسلام مظهر من مظاهر القبورية، فلم يكن ثمة مشهد أو مسجد مبني علىٰ قبر، ولم يكن ثمة قباب ولا أبنية علىٰ القبور.

---

(١) الاستغاثة في الرد علىٰ البكري (١/ ٢٧٠)، وانظر: المضنون به علىٰ غير أهله، المنسوب للغزالي (١١٨-١٢٠)، والمطالب العالية، الرازي (٧/ ٢٧٦).

(٢) انظر أمثلة علىٰ ذلك: دمعة علىٰ التوحيد (١١٩).

ولم يحدث ذلك في أمة الإسلام إلا بعد زمن متأخر، في نهاية القرن الثالث أو بعده، بسبب انحراف أتباع المذهب الشيعي، فهم أول من أحدث الغلو في القبور وجعلها مسلكا من مسالك التعبد المنحرفة، فالشيعة هم المؤسسون للقبورية في أمة الإسلام.

وحين كان يظهر شيء من مظاهر الغلو في القبور في أول تاريخ الإسلام، كان الولاة والعلماء يقومون بإنكاره وإزالته، وفي تأكيد هذا الأمر، يقول الإمام الشافعي: «وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنىٰ فيها، فلم أر الفقهاء يعيبون ذلك»[١]، وهذا يدل علىٰ أن بدعة القبورية بدأت تشكلها من أيام الإمام الشافعي، ولكن كان الولاة يحاربونها ويتصدون لها، وكان الفقهاء يؤيدون فعلهم.

ويقول السمهودي: «إنما أوجب عدم العلم بعين قبر فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها وغيرها من السلف: ما كانوا عليه من عدم البناء علىٰ القبور وتجصيصها»[٢].

ويعد ابن تيمية من أكثر العلماء الذين اهتموا بظاهرة القبورية، فقد تتبع تاريخ ظهورها في أمة الإسلام وأسباب انتشارها، ومن كان وراء ظهورها ومعالمها ومظاهرها وبيان الأصول والمستندات التي تقوم عليها ومآلاتها في الانحراف والبعد عن قوانين الشريعة، والكشف عن حقيقة القبور التي يغلون فيها.

وفي بيان شيء من تاريخ القبورية يقول ابن تيمية في أثناء حديثه عن دولة بني العباس: «فإنهم حينئذ لم يكونوا يعظمون المشاهد سواء منها ما

(١) الأم (١١/ ٢٧٧).
(٢) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ (٣/ ٩٣).

كان صدقا أو كذبا كما حدث فيما بعد؛ لأن الإسلام كان حينئذ ما يزال في قوته وعنفوانه، ولم يكن علىٰ عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام، لا في الحجاز ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب، ولم يكن قد أحدث مشهد لا علىٰ قبر نبي، ولا صاحب، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح أصلا؛ بل عامة هذه المشاهد محدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس، وتفرقت الأمة، وكثر فيهم الزنادقة الملبسون علىٰ المسلمين، وفشت فيهم كلمة أهل البدع، وذلك من دولة المقتدر، في أواخر المائة الثالثة.

فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب، ثم جاؤوا بعد ذلك إلىٰ أرض مصر، ويقال: إنه حدث قريبا من ذلك: المكوس في الإسلام.

وقريبا من ذلك ظهر بنو بويه، وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قوي بنو عبيد القداح بأرض مصر وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلىٰ علي ﷺ بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر علي هناك، وإنما دفن علي ﷺ بقصر الإمارة بالكوفة، وإنما ذكروا أن بعضهم حكىٰ عن الرشيد: أنه جاء إلىٰ بقعة هناك، وجعل يعتذر إلىٰ المدفون فيها، فقالوا: إنه علي، وإنه اعتذر إليه مما فعل بولده، فقالوا: هذا قبر علي، وقد قال قوم: إنه قبر المغيرة بن شعبة»[(١)].

وقد أكد عدد من الدارسين النتيجة التي توصل إليها ابن تيمية، فذكروا من خلال دراستهم التاريخية أن أقدم ضريح عُرف في تاريخ الإسلام كان

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٦٥).

في القرن الثالث الهجري، فقد ذكرت عالمة الآثار الدكتورة سعاد ماهر: «أن أقدم ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة يرجع إلىٰ القرن الثالث الهجري، وقد عُرف هذا الضريح باسم (قبة الصليبية)، ويوجد في مدينة سامرّا بالعراق علىٰ الضفة الغربية لنهر دجلة إلىٰ الجنوب من قصر العاشق . . . ويقول الطبري: إن أم الخليفة العباسي استأذنت في بناء ضريح منفصل لولدها، فأذن لها؛ إذ كانت العادة قبل ذلك أن يدفن الخليفة في قصره، فأقامت قبة الصليبية في شهر ربيع الثاني سنة ٢٨٤هـ، وقد ضُم الضريح إلىٰ جانب المنتصر الخليفة المعتز والمهتدي، وتعتبر قبة الصليبية أول قبة في الإسلام»(١).

انتشار القبورية في العالم الإسلامي:

مع غلبة الجهل علىٰ كثير من المسلمين وكثرة التلبيس عليهم، وتفريط كثير من أهل العلم في الدعوة والتعليم؛ انتشرت القبورية في العالم الإسلامي انتشارا كبيرا، فلا تكاد تجد مدينة ولا مصرا من الأمصار إلا وفيها عدد من الأضرحة والقبور التي يتعلق الناس بها، ويصرفون فيها أنواعا من العبادات للأولياء والصالحين والمقبورين.

وقد قام عدد من الدارسين بجمع عدد الأضرحة التي يقع فيها الغلو والإشراك من دون الله في عدد من الأمصار الإسلامية فبلغت أعدادها مبلغا كبيرا.

ففي غفلة من الأمة أنبتت القبورية شبكة واسعة من القبور والأضرحة المقدسة، عمت معظم أنحاء العالم الإسلامي، بل إن بعض الباحثين يقدر

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون (٤٦/١)، نقلا عن: دمعة علىٰ التوحيد (١٨).

عدد الأضرحة في القطر الذي يعيش فيه بما لا يقل عن عدد المدن والقرىٰ في هذا القطر، حيث يقول: «وأضرحة الأولياء التي تنتشر في مدن مصر ونحو ستة آلاف قرية: هي مراكز لإقامة الموالد للمريدين والمحبين، ويمكننا القول: إنه من الصعب أن نجد يوما علىٰ مدار السنة ليس فيه احتفال بمولد ولي في مكان ما بمصر»[1]، بل أصبحت القرىٰ التي تخلو من الأضرحة مثار تندر وتهكم سدنة الأضرحة، فقد ذكر الدكتور زكريا سليمان بيومي أن من القرىٰ التي تخلو من أضرحة الأولياء: (بِيّ العرب)، و(أبو سنيطة)، و(ميت عفيف)، وهي جميعا مركز الباجور منوفية، وأطلق المشايخ أمثلة شعبية علىٰ بخل هذه القرىٰ وخلوها من البركة ما زالت سارية بين الناس حتىٰ الآن![2].

ولكي ندرك حجم المأساة أكثر، سنورد بعض ما تيسر من نماذج توضح حجم انتشار هذه الأضرحة في بعض بقاع العالم الإسلامي، وبالطبع، فليس من بلد به ضريح إلا وله مريدون ممن يعتقدون فيه . . . فمن بين ألوف الأضرحة المنسوبة إلىٰ الأنبياء والصحابة والأولياء في العالم الإسلامي يشتهر في مصر من بين أكثر من ستة آلاف ضريح علىٰ تقدير من أشرنا إليهم أكثر من ألف ضريح[3].

ويذكر صاحب الخطط التوفيقية «علي باشا مبارك» أن الموجود في زمنه في القاهرة وحدها مئتان وأربعة وتسعون ضريحا[4]، ومن أشهرها ضريح الحسين، وضريح السيدة سكينة، وضريح السيدة نفيسة، وضريح

---

(١) موالد مصر المحروسة، عرفة عبده علي (٧).

(٢) انظر: الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة (١٢٦).

(٣) دمعة علىٰ التوحيد (٢٥-٢٦)، والمراجع السابقة مذكورة عن طريق هذا المرجع.

(٤) الخطط التوفيقية (١/ ٢٤٤).

السيدة زينب، وضريح الليث بن سعد، وكل هذه الأضرحة قد بُني عليها جوامع ومساجد.

وتذكر الدكتورة سعاد ماهر أن الأضرحة المشهورة يزيد عددها في مصر علىٰ الألف[١]، ومن أشهرها خارج القاهرة ما يسمىٰ بضريح السيد البدوي في طنطا، وإبراهيم الدسوقي بدسوق، وأبي العباس المرسي بالإسكندرية، وأبي الدرداء بها أيضا، وأبي الحسن الشاذلي بقرية حميثرة بمحافظة البحر الأحمر، وأحمد رضوان بقرية البغدادي بالقرب من الأقصر، وأبي الحجاج الأقصري بالأقصر أيضا، وعبد الرحيم القنائي بقنا.

ولم تكن الأقطار الأخرىٰ أحسن حالا من القطر المصري، ففي الشام مثلا عشرات من الأضرحة والمزارات المشهورة، وقد ذكر القاياني الأضرحة التي زارها فبلغت أكثر من أربعين ضريحا، وقد أحصىٰ عبد الرحمن بك سامي سنة (١٨٩٠م) في دمشق وحدها ١٩٤ضريحا ومزارا[٢]، أما عد نعمان قسطالي المشهور منها فـ٤٤ ضريحا، وذكر أنه منسوب للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبرا، لكل واحد منها قبة ويزار ويتبرك به[٣].

أما الآستانة عاصمة السلطنة العثمانية فيوجد ٤٨١ جامعا لا يكاد يخلو جامع فيها من ضريح، أشهرها الجامع الذي بني علىٰ القبر المنسوب إلىٰ أبي أيوب الأنصاري في الآستانة (القسطنطينية).

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون (١/ ٤٤).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، علي الزهراني (١/ ٢٩٤).

(٣) انظر: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء (١٣١).

وفي الهند يوجد أكثر من مئة وخمسين ضريحا مشهورا، يؤمها الآلاف من الناس ويفعلون عندها ألوانا من البدع والشرك[١].

وفي بغداد كان يوجد أكثر من مئة وخمسين جامعا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وقلّ أن يخلو جامع منها من ضريح[٢]، وفي الموصل يوجد أكثر من ستة وسبعين ضريحا مشهورا، كلها داخل جوامع[٣].

انتشار القبور والأضرحة المكذوبة:

نتيجة لانتشار القبورية في العالم الإسلامي، وتعلق كثير من جهلة المسلمين بالقبور، انتشرت القبور الوهمية المكذوبة، فطفق كثير من الناس يدعون في قبور بأنها لأولياء وصالحين وهي ليست كذلك، وإنما هي كذب وتزوير.

وقد اهتم ابن تيمية بهذه المسألة اهتماما خاصا، وتتبع القبور المكذوبة، وبيّن الأدلة علىٰ ذلك، وعددا من الأسباب التي أدت إلىٰ تلك الأغلاط في تحديد القبور، وقد قسم القبور إلىٰ ثلاثة أقسام، حيث يقول: «القبور ثلاثة أقسام:

منها: ما هو حق لا ريب فيه، مثل قبر نبينا ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، فإن هذا منقول بالتواتر، وإن كان بعض الرافضة تطعن في قبر أبي بكر وعمر، فهؤلاء مكابرون بهاتون، بمنزلة من ينكر قبر النبي ﷺ.

---

(١) انظر: الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية (١٣٩).

(٢) انظر: مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (١/ ٧٢).

(٣) انظر: ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء، أحمد الموصلي، والإحصاءات السابقة بمراجعها منقولة من كتاب: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، علي الزهراني (١/ ٢٩٦-٢٩٨).

ومنها: ما هو كذب بلا ريب، مثل القبر المضاف إلىٰ أُبي بن كعب الذي شرقي دمشق، فإن الناس متفقون علىٰ أن أبي بن كعب مات بالمدينة النبوية، وكذلك أمهات المؤمنين كلهن توفين بالمدينة، فمن قال: إن بظاهر دمشق قبر أم حبيبة أو أم سلمة أو غيرهما فقد كذب، ولكن من الصحابيات بالشام امرأة يقال لها: أم سلمة أسماء بنت يزيد بن السكن، فهذه توفيت بالشام، فهذه قبرها محتمل، كما أن قبر بلال ممكن، فإنه دفن بباب الصغير بدمشق، فنعلم أنه دفن هناك، وأما القطع بتعيين قبره ففيه نظر . . .

وكذلك القبر المضاف إلىٰ أويس القرني غربي دمشق كذب بلا ريب، وقد روىٰ أبو عبد الرحمن السلمي حكاية فيها أنه توفي بدمشق، وهي باطلة قطعا، فإن أويسا لم يجئ إلىٰ الشام، وإنما ذهب إلىٰ العراق.

وكذلك القبر المضاف إلىٰ هود بجامع دمشق كذب باتفاق أهل العلم، فإن هودا لم يجئ إلىٰ الشام، بل بعث باليمن وهاجر إلىٰ مكة، فقيل: إنه مات باليمن، وقيل: إنه مات بمكة، وإنما ذلك تلقاء قبر معاوية بن أبي سفيان، فإن خلف الحائط تابوتا مكتوبا فيه اسم معاوية بن أبي سفيان.

وأما الذي خارج باب الصغير الذي يقال: إنه قبر معاوية، فإنما هو معاوية بن يزيد بن معاوية الذي تولىٰ الخلافة مدة قصيرة ثم مات، ولم يعهد إلىٰ أحد، وكان فيه دين وصلاح، ولكن لما اشتهر أنه قبر معاوية ظن الناس أنه معاوية بن أبي سفيان.

وهكذا يقال في قبر خالد إنه خالد بن يزيد بن معاوية أخو يزيد هذا، ولكن لما اشتهر أنه خالد، والمشهور عند العامة خالد بن الوليد ظنوا أنه خالد بن الوليد، كان قد عزله عمر بن الخطاب لما تولىٰ عن إمارة الشام، وقد اختلف في هذا الذي بحمص هل هو قبره أو قبر خالد بن يزيد.

وكذلك اختلف في قبر أبي مسلم الخولاني الذي بداريا علىٰ قولين، وكذلك قبور غير هذه اختلف الناس فيها، **وهذا هو القسم الثالث،** وهو الذي اختلف فيه أهل النقل، فإن كان مع أحدهما ما يرجح به نقله ترجح.

وأما المكذوب قطعا فكثير، مثل قبر علي بن الحسين الذي بمصر، فإن علي بن الحسين توفي بالمدينة بإجماع الناس ودفن بالبقيع، ويقال: إن قبة العباس بها قبره وقبر الحسن وعلي بن الحسين وأبي جعفر الباقر وجعفر بن محمد، وفيها أيضا رأس الحسين، وأما بدنه فهو بكربلاء باتفاق الناس، والذي صح ما ذكره البخاري في صحيحه من أن رأسه حمل إلىٰ عبيد الله بن زياد، وجعل ينكت بالقضيب علىٰ ثناياه، وقد شهد ذلك أنس بن مالك، وفي رواية أخرىٰ أبو برزة الأسلمي، وكلاهما كانا بالعراق، وقد روي بإسناد منقطع أو مجهول أنه حمل إلىٰ يزيد، وجعل ينكت بالقضيب علىٰ ثناياه، وأن أبا برزة كان حاضرا وأنكر ذلك، وهذا كذب، فإن أبا برزة لم يكن بالشام عند يزيد، وإنما كان بالعراق . . . .

وكذلك قبر نوح الذي بجبل بعلبك كذب قطعا، وإنما ظهر من مدة قريبة، وقد بينت حاله لما سألني عنه أهل الناحية، وتبين أنه لا أصل له.

وكذلك مشهد الرأس الذي بالقاهرة، فإن المصنفين في مقتل الحسين اتفقوا علىٰ أن الرأس لم يعرف، وأهل المعرفة بالنقل يعلمون أن هذا أيضا كذب، وأصله أنه نقل من مشهد بعسقلان، وذاك المشهد بني قبل هذا بنحو من ستين سنة، في أواخر المائة الخامسة، وهذا بني في أثناء المائة السادسة بعد مقتل الحسين بنحو من خمسمائة عام، والقاهرة بنيت بعد مقتل الحسين بنحو من ثلاثمائة عام، وهذا المشهد بني بعد بناء القاهرة بنحو مائتي عام.

وكذلك قبر علي عليه السلام الذي بباطنة النجف بالكوفة، فإن المعروف عند

أهل العلم أنه دفن بقصر الإمارة بالكوفة، كما دفن معاوية بقصر الإمارة بالشام، ودفن عمرو بقصر الإمارة بمصر، خوفا عليهم من الخوارج أن ينبشوا قبورهم، فإن الخوارج كانوا قد تحالفوا علىٰ قتلهم . . .

ومثل قبر جابر الذي بظاهر حران، فإن الناس متفقون علىٰ أن جابرا توفي بالمدينة النبوية، وهو آخر من مات من الصحابة بها.

ومثل قبر عبد الله بن عمر الذي بالجزيرة، فإن الناس متفقون علىٰ أن عبد الله بن عمر مات بمكة عام قتلِ ابن الزبير، وأوصىٰ أن يدفن في الحل لكونه من المهاجرين، فشق ذلك عليهم، فدفنوه بأعلىٰ مكة.

وكثير من هذه الأسماء يقع فيها الغلط من جهة اشتراك الأسماء، كما وقع في قبر معاوية وغيره بسبب اشتراك اللفظ، فلعل رجلا اسمه جابر أو عبد الله بن عمر دفن هناك، فظن الجهال أنه الصاحب لشهرته، ثم اشتهر ذلك.

وكذلك رقية وأم كلثوم مما هو مدفون بالشام أو مصر أو غيرهما، قد يظن بعض الناس أنه قبر رقية بنت النبي أو أم كلثوم بنته، وقد اتفق الناس علىٰ أن رقية وأم كلثوم ماتتا في حياة النبي ﷺ بالمدينة تحت عثمان بن عفان، وبهما يسمىٰ ذا النورين، وكذلك زينب بنت النبي ﷺ توفيت في حياته، ولم يخلف من بناته إلا فاطمة، ولم يخرج أحد من بناته إلىٰ الشام ولا مصر ولا غيرهما من الأقاليم . . .

والقبور المختلف فيها كثيرة، منها قبر خالد بن الوليد كما تقدم، فإن فيه قولين ذكرهما أبو عمر ابن عبد البر في «الاستيعاب»: توفي بحمص، وقيل: توفي بالمدينة، سنة إحدىٰ وعشرين أو اثنتين وعشرين في خلافة عمر ابن الخطاب . . .

وأما قبر الخليل ﷺ، قالت العلماء علىٰ أنه حق، لكن كان مسدودا بمنزلة حجرة النبي، ولم يكن عليه مسجد، ولا يصلي أحد هناك، بل المسلمون لما فتحوا البلاد علىٰ عهد عمر بن الخطاب بنوا لهم مسجدا يصلون فيه في تلك القرية منفصلا عن موضع الدير، ولكن بعد ذلك نقب حائط المقبرة كما هو الآن النقب ظاهر فيه، فيقال: إن النصارىٰ لما استولوا علىٰ البلاد نقبوه وجعلوه كنيسة، ثم لما فتحه المسلمون لم يكن المتولي لأمره عالما بالسنة حتىٰ يسده ويتخذ المسجد في مكان آخر، فاتخذ ذلك مسجدا وكان أهل العلم والدين العالمون بالسنة لا يصلون هناك»[١].

ومن أكبر الأسباب التي أدت إلىٰ كثرة القبور المكذوبة والمشاهد المزورة الاعتماد علىٰ الرؤىٰ والمنامات في تحديدها، وهذا أمر مشتهر جدا، حتىٰ ظهر ما يسمىٰ بأضرحة الرؤيا، تقول الدكتورة سعاد ماهر: «ظهر في العصور الوسطىٰ وخاصة في أوقات المحن والحروب التي لا تجد فيها الشعوب من تلوذ به غير الواحد القهار أن يتلمسوا أضرحة آل البيت والأولياء للزيارة والبركة والدعاء، ليكشف الله عنهم السوء ويرفع البلاء، ومن ثم: ظهر ما يعرف بأضرحة الرؤيا، فإذا رأىٰ ولي من أولياء الله الصالحين في منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجدا أو ضريحا لأحد من أهل البيت أو الولي المسمىٰ في الرؤيا، فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه»[٢].

---

(١) جامع المسائل، جمع: عزير شمس وعلي العمران (٤/ ١٥٤-١٦٠)، وانظر: مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٥٧-٤٦٠).

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون (١/ ١-٢)، نقلا عن دمعة علىٰ التوحيد (٢٢).

الانحراف العقدي عند القبورية:

تتضمن ظاهرة القبورية أنواعا من الانحرافات وصنوفا من المخالفات العقدية والشرعية، فترىٰ جهلة المسلمين يفعلون عند القبور من العبادات ما لا يفعلون في بيوت الله تعالىٰ التي أمر أن تقام علىٰ ذكره، فيذبحون وينذرون للقبور وعندها، وتراهم يصلون ويطوفون، ويستغيثون وينادون ويتذللون ويخضعون للأموات في القبور بما لا يكاد يفعله أحدهم في مساجد الله تعالىٰ.

فأضحت القبور مع ظاهرة القبورية مرتعا لأصناف من الشرك بالله تعالىٰ، ومسرحا لأنواع من البدع والانحرافات المخالفة لدينه الحنيف.

وباتوا ينسبون إلىٰ القبور كل ما يتعلق بالتدبير الإلهي للكون، وأصول الخصائص الربانية، فكثير من جهلة المسلمين الذين تأثروا بالقبورية يعتقدون أن القبور محل لشفاء الأمراض وتفريج الكربات وتحقيق الأمنيات، وإنزال المطر، وهبة الأولاد وتكثير الذرية، وحفظ المال والأهل والولد.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلىٰ أن شرعوا للقبور حجا، ووضعوا له مناسك، حتىٰ صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابا، سماه: «مناسك حج المشاهد»، مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفىٰ أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام[١].

وقد أكثر المنحرفون من القبورية من ذكر الأخبار والتوجيهات التي تزيد من تعلق جهلة المسلمين بالقبور وصرفهم العبادات لأهلها، يقول الشعراني: «قال سيد محمد الحنفي: من كان له حاجة فليأت إلىٰ قبري،

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم (١/ ١٩٧).

ويطلب حاجته أقضها، فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل»(١)، وينقل عن محمد بن أحمد الفرغل، أنه قال: «أنا من المتصرفين في قبورهم، فمن كانت له حاجة فليأت إلىٰ قبالة وجهي ويذكرها لي أقضها له»(٢)، والأخبار التي من هذا القبيل كثيرة جدا.

وقد ذكر العلماء قدرا كبيرا مما يقع من القبورية عند القبور، يقول الشوكاني في بيان حال القبورية في زمنه: «وكم قد سرىٰ عند تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة علىٰ جلب النفع ودفع الضرر فجعلوها مقصدا لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم، وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا.

وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا تجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الحنيف، لا عالما ولا متعلما، ولا أميرا ولا وزيرا ولا ملكا، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيرا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجرا، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبىٰ واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة علىٰ أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالىٰ ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين، أي رزء للإسلام أشد من

(١) الطبقات الكبرىٰ (١/ ٢٧٠).

(٢) الطبقات الكبرىٰ (١/ ٢٧٤).

الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله؟ وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة؟ وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا»[١].

ويقول المقريزي في أثناء حديثه عن رحبة أبي تراب وما يحدث عندها من الشرك: «وبالله إن الفتنة بهذا المكان الآخر من حارة برجوان الذي يعرف بجعفر الصادق لعظيمة، فإنهما صارا كالأنصاب التي كانت يتخذها مشركو العرب، يلجأ إليهما سفهاء العامة والنساء في أوقات الشدائد، وينزلون بهذين الموضعين كربهم وشدائدهم التي لا ينزلها العبد إلا بالله ربه، ويسألون في هذين الموضعين ما لا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ وحده، من وفاء الدين من غير جهة معينة، وطلب الولد ونحو ذلك، ويحملون النذور من الزيت وغيره إليهما، ظنا أن ذلك ينجيهم من المكاره، ويجلب إليهم المنافع، ولعمري إن هي إلا كرة خاسرة»[٢].

وقد اعترف أحمد الغماري -وهو أحد المدافعين عن كثير من مظاهر القبورية- بوقوع الشرك عند القبور، حيث يقول: «إن كثيرا من العوام بالمغرب ينطقون بما هو كفر في حق الشيخ عبد القادر الجيلاني . . . وكذلك نرىٰ بعضهم يفعل ذلك مع من يعتقده من الأحياء، فيسجد له، ويقبل الأرض بين يديه في حال سجوده، ويجعل يديه من ورائه علامة علىٰ التسليم وفرط التضرع والالتجاء، ويطلب منه في تلك الحال الشفاء والغنىٰ والذرية ونحو ذلك مما لا يطلب إلا من الله تعالىٰ . . .

---

(١) نيل الأوطار (٤/ ١٠٢).

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/ ٩٤).

وإن عندنا بالمغرب من يقول في ابن مشيش: إنه الذي خلق الدين والدنيا، ومنهم من قال -والمطر نازل بشدة-: يا مولانا عبد السلام! الطف بعبادك؛ فهذا كفر»[١].

وقد باتت حياة جهلة المسلمين مرتبطة بالقبور ارتباطا يفوق ارتباطهم بالله تعالىٰ، «امتلأت بحبها جوانبهم، وشغفت بها قلوبهم، فهم يلجؤون إليها في الشديد والملمات، ويلتمسون منها أسباب النصر ودحر الأعداء، ويطلبون منها الرزق والولد والشفاء من الأمراض، ويتحرون الدعاء في رحابها، ويرون أنه مستجاب لا يرد.

ويرد إليها المظلومون والمضطهدون لعلها تكشف ما بهم، وتكف أيدي الظالمين عنهم، ويأوي إليها الفقراء والمحاويج ليعيشوا في كنفها وعلىٰ ريع أوقافها، وما يقدم لها من نذور وقرابين، ويفر إليها العصاة والمجرمون فيعتصمون بها، ويلوذ بها الخائفون فلا يلحقهم أذىٰ ولا تمتد إليهم يد ما داموا في حرمها الآمن.

ويزورونها في المناسبات والأعياد، وتكون آخر عهدهم إذا ودّعوا الأهل والبلدان، وأول شيء يبدؤون به إذا عادوا إلىٰ أوطانهم، أو نزلوا في بلد غريب، وكثيرا ما تتحرك الجيوش من رحابها بعد أن تطلب من أربابها أن تمنحهم أسباب الفوز والظفر.

وإذا رزق أحدهم بمولود فسرعان ما يحمله إليها لتبارك في عمره ورزقه، ومن كان عقيما سأل منها الولد، ومن كانت عانسا رجت منها بعلا»[٢].

---

(١) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد علىٰ القبور (٢٠).

(٢) الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، علي الزهراني (١/ ٣١٥).

الفساد الأخلاقي عند القبورية:

لم يقتصر الانحراف الذي يقع فيه القبورية علىٰ الانحرافات العقدية -وكفىٰ بها قبحا- وإنما تجاوزوا ذلك إلىٰ صنوف من الانحرافات الأخلاقية المنافية لأحكام الشريعة وآدابها، فيكثر في مشاهد القبورية من الاحتفالات والأعياد وغيرها، وشرب الخمر، والوقوع في الرذيلة، وترك الفرائض، والانغماس في الملاذ المحرمة.

وفي بيان شيء من مظاهر ذلك الفساد الأخلاقي الواقع عند القبورية، يقول الجبرتي في أثناء حديثه عن مولد العفيفي: «ثم إنهم ابتدعوا له موسما وعيدا في كل سنة، يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية، فينصبون خياما كثيرة وصواوين، ومطابخ، وقهاوي، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم، وفلاحي الأرياف، وأرباب الملاهي، والملاعب، والغواني، والبغايا، والقرادين، والحواة.

فيملؤون الصحراء والبستان فيطؤون القبور، ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات، ويبولون، ويتغوطون، ويزنون، ويلوطون، ويلعبون، ويرقصون، ويضربون بالطبول والزمور ليلا ونهارا، ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر، ويجتمع لذلك أيضا الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياما أيضا، ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار، والعامة، من غير إنكار، بل ويعتقدون ذلك قربة وعبادة!!»[(١)].

والحديث عن القبورية طويل متشعب، وهو يتطلب بحوثا مفردة تقوم علىٰ دراسة هذه الظاهرة من جهة تاريخها وأسباب نشأتها وتطوراتها ومظاهرها وتشكلاتها وآثارها الدينية والاجتماعية وغيرها من المباحث.

---

(١) عجائب الآثار (١/ ٣٠٤)، وانظر: القبورية: نشأتها . . آثارها، أحمد المعلم (٣٩٦-٤٠٠، ٤٠٦).